الشبهاتُ الواردةُ في كتاب " الشخصية المحمدية"

على أحاديثِ وصف النبي ﷺ حال نزول الوحي والردُ عليها

دراسة نقدية

أ. د. متعب بن سالم الخمشي

الأستاذ بقسم قسم السنة وعلومها . كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .

جامعة القصيم

khmshie@qu.edu.sa

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد :

فقد جمّل الله نبيه ﷺ وحسّن خَلقه وخُلقه ، كمّله بما اختصه من ختام النبوة وعموم البعثة وسيادة البشر، وبما أعطاه من خصال الخير ومكارم الأخلاق التي لا يُشاركه فيها أحدٌ من الخلق، وبما أعطاه من الدلائل المبينة من القرآن الكريم وجوامع الكلم وحفظ الشريعة، وأوجب ﷻ متابعته وأمر بطاعته، وإن من تحقيق المتابعة له ﷺ حضور هيبة الحديث عنه ﷺ وتوقيره واحترامه حياً وميتاً، قال الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ ﴾ **[الحُجُرات:2]**، وقال ﷻ: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣ ﴾ **[النور:63]**، قال قتادة :" أمرهم أن يُفَخّموه ويُشرفوه"[1].

لقد التزم السلف الصالح من الصحابة وغيرهم هذا الهدي من التوقير والاحترام للنبي ﷺ حتى بعد موته، ففي صحيح البخاري عن يَزِيدِ بْنِ خُصَيْفَةَ عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: اذْهَبْ فأتني بِهَذَيْنِ. فَجِئْتُهُ بِهِمَا، قَالَ: مَنْ أَنْتُمَا – أَوْ

(1) "جامع البيان"، للطبري 389/17.

مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ قَالاَ: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ. قَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ "[1].

أما المعرضون المعاندون فطريقتهم هي الإمعان في الغي والضلال بالإساءة إلى الجناب الرفيع والمقام الكريم، وإن من أوائل إساءاتهم تهكمهم بالوحي، وقذفهم للنبي ﷺ بالسحر والجنون، يَقذفون الشبهات في طريق مبتغ الحق، وما زال ذلك ديدن أهل الضلال إلى يومنا هذا، إلا أنهم في العصور المتأخرة يُلبسون شبهاتهم لباساً جديداً؛ للترويج لها والتغرير بها، يُعلقون على نصوصٍ من الوحيين زعماً منهم أنها حججٌ على شبهاتهم، ومن ذلك ما كتبه إفكاً وزوراً وبهتاناً مبيناً الشاعرُ معروف الرصافي في كتابه " الشخصية المحمدية "، حيث ألقى شبهات حول أحاديث وصفِ النبي ﷺ حال نزول الوحي، ادعى فيها أكاذيب باطلة ومجازفاتٍ ضالة في حق جناب النبي ﷺ، وبعد استعراض لما كتبه وتمعنٍ فيما افتراه، رأيت أنه من المتحتم الرد على شبهاته ودفع فريته وسُبته، سيما والرجل له موقعه في الشعر قد يدفع البعض إلى سماع آرائه والتأثر بها، وهذا الرد أدنى ما للنبي ﷺ من الحق علينا، قال شيخ الإسلام :" اقتضاني لحادثٍ حدث أدنى ماله – أي رسول الله– من الحق علينا، بل هو ما أوجب الله من تعزيزه ونصره بكل طريق، وإيثاره بالنفس والمال في كل موطن، وحفظه وحمايته من كل موذٍ، وإن كان الله قد أغنى رسوله عن نصر الخلق، ولكن ليبلوا بعضكم ببعض، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب..." [2].

(1) أخرجه البخاري 470.

(2) " الصارم المسلول"، لابن تيمية 2.

ورأيت أن يكون الرد وفق جادة المحدثين سنداً ومتناً ، وعلى أصول منهج البحث العلمي؛ لتقديم مادة مؤصلة في الرد على هذه الشبهات يقف عليها كل محققٍ في الدرس العلمي، مبتغٍ للحق متحمسٍ للصواب ، فاستعنت بالله، وتوجهت إلى هذا البحث، وجعلته له العنوان التالي:

الشبهات الواردة في كتاب " الشخصية المحمدية" على أحاديث وصف النبي ﷺ حال نزول الوحي والرد عليها دراسة نقدية

مشكلة البحث :

يمكن تلخيص مشكلة البحث فيما يلي :

- ما الشبهات الواردة في كتاب "الشخصية المحمدية" على أحاديث وصف النبي صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحي؟
- ما الرد على هذه الشبهات؟

أهمية البحث:

تظهر أهمية البحث من خلال النقاط التالية :

- صلة هذا الموضوع بالمصدر الأول والمعجزة الخالدة "القرآن الكريم".
- منزلة مُثير هذه الشبهات الشاعر معروف الرصافي في الشعر العربي المعاصر.
- عدم وجود دراسة حديثية متعلقة بدراسة هذه الشبهات– على وجه العموم – والرد عليها.

- ظهور الحاجة الماسة لتقديم الرد عبر مادة علمية مؤصلة مفصلة، تكون مرجعاً لكل طالب حق.

أهداف البحث:

- عرض الشبهات الواردة في كتاب " الشخصية المحمدية" على أحاديث وصف النبي صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحي .
- الرد على هذه الشبهات وتقديم مادة علمية مؤصلة في الدفاع عن محكمات الدين عموماً، وعن الجناب الشريف خصوصاً.

حدود البحث:

الشبهات الواردة في كتاب " الشخصية المحمدية" على أحاديث وصف النبي صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحي والرد عليها.

الدراسات السابقة :

لم أجد من بحث هذا الموضوع، وثمة بحوث تناولت الكاتب والكتاب بالدراسة والنقد في مجالات أخرى ، ومن ذلك :

- الدين عند الرصافي من خلال كتاب " الشخصية المحمدية"، للباحث إبراهيم رجب عبد الله العاني، وهو بحث في تخصص العقيدة منشور في مجلة جامعة الأنبار الإسلامية، المجلد 4 العدد 17، سنة 2013م – شهر تشرين الثاني، وقد عرض فيه عدة مباحث : مناهج البحث عند الرصافي في كتابه الشخصية المحمدية، والذات الإلهية والصفات، النبوة والقضايا الغيبية وفي هذا المبحث عرض للشبهة بكلام يسير، وأمثلة في العبادات والأحكام.. إلخ ذلك من المباحث، ولم يتطرق إلى موضوع البحث .

- وبخصوص أحاديث وصف النبي ﷺ حال نزول الوحي، فقد قمتُ بجمعها من الكتب السبعة ودراستها بتوسع، وذلك في بحث آخر.

منهج البحث:

سأعتمد في هذا البحث عدة مناهج، فالاستقرائي لعرض ما ذكره الرصافي من شُبهات حول الأحاديث الواردة في وصف النبي ﷺ حال نزول الوحي، والمنهج النقدي التحليلي لدراسة هذه الشبهات الواردة على هذه الأحاديث والرد عليها.

خطة البحث: وتتكون من مقدمة، وتمهيدٍ ومبحثان، وخاتمة.

المقدمة وتشتمل على: مشكلة البحث، وأهميته، وأهدافه، وحدوده، والدراسات السابقة، ومنهج البحث.

تمهيد: وفيه التعريف بمعروف الرصافي، وكتابه " الشخصية المحمدية ".

المبحث الأول: الشبهات الواردة على أحاديث وصف النبي صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحي في كتاب " الشخصية المحمدية " .

المبحث الثاني: الرد على هذه الشبهات.

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: الوحي حال خاصة بالأنبياء.

المطلب الثاني: الشدة الظاهرة على النبي ﷺ سببها ثقل الوحي.

المطلب الثالث: ظهور أمر شدة الوحي على النبي ﷺ لمن حوله.

المطلب الرابع: الثقل الحسي وتعديه إلى الغير .

المطلب الخامس: آثار الوحي علمٌ وبيانٌ، وآثار الصرع ذهولٌ ونسيانٌ.

المطلب السادس: بطلان بعض الأوصاف؛ لورودها في أحاديث باطلة.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث.

تمهيد: وفيه التعريف بمعروف الرصافي، وكتابه " الشخصية المحمدية ".

هو معروف بن عبد الغني بن محمود الجباري الحسيني، في بغداد المولود عام 1875م، نشأ في بغداد حيث أكمل دراسته في الكتاتيب، ثم دخل المدرسة العسكرية الابتدائية فتركها، وانتقل إلى الدراسة في المدارس الدينية ودرس على يد علماء بغداد الأعلام كالشيخ عبد الوهاب النائب، والشيخ قاسم القيسي، والشيخ قاسم البياتي، والشيخ عباس حلمي القصاب، ثم اتصل بالشيخ العلامة محمود شكري الألوسي ولازمهُ ثنتي عشرة سنة، وسماه (معروف الرصافي) ليكون في الصلاح والشهرة والسمعة الحسنة، مقابلاً لمعروف الكرخي.

وعُيّن الرصافي معلماً في مدرسة الراشدية، ثم نُقل مدرساً للأدب العربي في الإعدادية ببغداد، ثم سافر إلى إسطنبول، ثم عُيّن مدرساً لمادة اللغة العربية في الكلية الشاهانية ومحرراً لجريدة سبيل الرشاد عام 1909م، وانتخب عضواً في مجلس المبعوثان عام 1912م، وأُعيد انتخابه عام 1914م، وعُيّن مدرساً في دار المعلمين في القدس عام 1920م، وعاد إلى بغداد عام 1921م، ثم سافر إلى الإستانة عام 1922م، ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى عام 1923م، وأصدر فيها جريدة الأمل، وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية في دمشق عام 1923م، وبعد ذلك عُيّن مفتشاً في مديرية المعارف ببغداد عام 1924م، ثم عُيّن أستاذاً في اللغة العربية بدار المعلمين العالية عام 1927م.

توفي الرصافي بدارهِ في محلة السفينة في الأعظمية ليلة الجمعة في ربيع الآخر من عام 1364هـ /16 مارس 1945م، ودُفن في مقبرة الخيزران، وبُني لهُ تمثالٌ في الساحة المقابلة لجسر الشهداء.

امتاز أسلوب الرصافي بمتانة لغته ورصانة أسلوبه، وله آثار كثيرة في النثر والشعر واللغة والآداب أشهرها ديوانه "ديوان الرصافي"، ومن مؤلفاته: الأناشيد

المدرسية، ونفح الطيب في الخطابة والخطيب، ومحاضرات الأدب العربي، وهذا الكتاب : الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس[1].

كتاب "الشخصية المحمدية":

في عام 1933م كتب معروف الرصافي هذا الكتاب، كما نقل كامل الجادرجي، حيث يقول :" أردت أن أشتغل اشتغالات فكرية بعيداً عن صخب العاصمة فقررت الذهاب إلى الفلوجة، فذهبت هناك سنة 1933 أو سنة 1932 وبقيت هناك أشتغل بكتابي " الشخصية المحمدية" حتى سنة 1941..." . ودار بينه وبين كامل الجادرجي الحوار التالي :

- كامل الجادرجي: هل اكملتم كتابكم المذكور؟
- معروف الرصافي: لم أكمل هذا الكتاب؛ لأن الكتاب كما تعلمون هو عبارة عن ملاحظات كنت أدونها كلما خطر لي خاطر حول هذا الموضوع.

- كامل الجادرجي: هل في النية طبع كتابكم المذكور؟

- معروف الرصافي: لو أتمكن أطبعه، ولكن كما تعلمون أن الوضع لا يساعد على طبعه في العراق حيث إن الناس لا يحتملون الآراء التي فيه. ولو كانت الظروف تساعدني لكنت أذهب إلى أوروبا أو إلى تركيا فأطبعه هناك[2].

وظل الكتاب مخطوطاً بناء على وصيته التي أثبتها في مقدمة كتابه، إلى أن قامت دار منشورات الجمل بنشره عام 2002م، ويقع الكتاب في 766 صفحة

(1)مصادر ترجمته : "الأعلام" 269/7 ، "معجم المؤلفين" 305/12-306 .

(2) "شعراء العراق في القرن العشرين"، ليوسف عز الدين 78-79. وقد نقل هذا الحوار من مخطوط بعنوان " أحاديث السيد كامل الجاردجي مع المرحوم معروف الرصافي"، ص28.

من القطع الكبير، وفي ص (13) ورد إقرار الشاعر معروف الرصافي بأن هذا الكتاب من تأليفه، جاء فيها :(إجازة الرصافي في النقل) اطلعت على هذه النسخة... من كتابي الشخصية المحمدية فرأيتها صحيحة كاملة خالية من الأغلاط في النسخ، فلذا اجيز... روايتها والنقل عنها... كتبت هذا اعلاماً بذلك معروف الرصافي"[1].

وقد جاء في ص (5) وصف للمجلدات الثمانية المصورة، كما وصف المخطوطَ مازن لطيف في إحدى مقالاته، حيث يقول:" تبين لي أن هناك ثلاث نسخ من هذه المخطوطة، النسخة الأولى كانت بخط مؤلفها الشاعر معروف الرصافي وهذه النسخة كانت محفوظة لدى الأستاذ محمود السنوي، وانتقلت فيما بعد الى دار المخطوطات العراقية، أما النسخة الثانية فكانت بخط الأستاذ مصطفى علي، انتقلت فيما بعد إلى الأستاذ جمال الآلوسي، أما النسخة الثالثة فكانت بخط المرحوم كامل الجادرجي وقد اعتمد الجادرجي على نسخة الرصافي في أربعة مجلدات، وتوجد نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي وهي موجودة لدى أسرة الجادرجي في بغداد. في أحد الأيام حصلت على كتاب الأستاذ الدكتور محمد حسنين هيكل الذي عنوانه (حياة محمد) ...والأهم أن هذه النسخة هي النسخة الشخصية للشاعر معروف الرصافي التي كانت تحمل اسمه وتعليقاته المتميزة بقلم الرصاص، وكان قسم من تعليقاته يقول فيها : ارجع إلى كتابي (الشخصية المحمدية) وطبعاً كان الكتاب مخطوطاً... وبعد سبعين عاماً طبُع الكتاب في ألمانيا، ومُنع الكتاب في أكثر الدول العربية، وقد كانت النسخة المطبوعة هي نسخة المرحوم كامل الجادرجي بعدما حصل عليها صاحب دار

(1)ص 13 .

الجمل الشاعر العراقي خالد المعالي من وريث المرحوم كامل الجادرجي وهو المعمار المرموق رفعت بن كامل الجادرجي..."[1].

وفي الكتاب أكثر من واحدٍ وتسعين ومائة عنوانٍ متعلقة بدارسة شخصية النبي ﷺ ، وبمعجزاته، وبالقرآن، ثم في آخر الكتاب ذكر العنوان التالي: "الشخصيات المربية" تحدّث فيه عن الحسن البصري في ثمانية عناوين فرعية، ثم ختم الكتاب بخاتمة لم تتجاوز صفحتين، ثم المصادر والمراجع حوتْ واحداً وثلاثين بما فيها القرآن الكريم والكتب الستة.

(1) من مقال "خواطر وذكريات مع مخطوطة ((الشخصية المحمدية)) للرصافي" على موقع مؤسسة النور للثقافة والإعلام : http://www.alnoor.se/article.asp?id=50723 . تاريخ زيارة الموقع : 18-2-1442هـ .

المبحث الأول

الشبهات الواردة على أحاديث وصف النبي صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحي في كتاب "الشخصية المحمدية " .

اشتمل كتاب" الشخصية المحمدية " للرصافي على الكثير والكثير من الطوام، وحشده بالشبهات، ومنها شبهة ذكرها في حديثه عن صفات شخصية النبي ﷺ الطبيعية، وأن ثمة ارتباط بين الطفولة والكهولة، ملخصه ما كان يقع من الصرع[1] في كلٍ، ثم كان استطراده في هذه الأحاديث التي جهل معناها وركب

(1) قال المناوي في "التوقيف على مهمات التعاريف"، 215:" علة دماغية غير تامة تتشنج بها جميع الأعضاء لانقباض مبدئها"

وجاء في موقع منظمة الصحة العالمية التعريف التالي :" لصرع هو اضطراب مزمن يصيب الدماغ ويتأثر به الأشخاص في جميع أنحاء العالم. ويتميز بنوبات متكررة، هي عبارة عن نوبات وجيزة من الحركة اللاإرادية التي قد تخص جزءاً من الجسم (جزئية) أو الجسم كله (عامة)، ويصاحبها أحياناً فقدان الوعي والتحكم في وظائف الأمعاء أو المثانة.

وتنجم هذه النوبات عن فرط الشحنات الكهربائية التي تطلقها مجموعة من خلايا الدماغ. وقد تنطلق هذه الشحنات من أجزاء مختلفة من الدماغ. وقد تتراوح النوبات بين غفلات الانتباه ونفضات العضلات الخاطفة وبين الاختلاجات الممتدة. كما أن النوبات قد تختلف من حيث مدى تواترها، من أقل من مرة واحدة في السنة إلى عدة مرات في اليوم.

ولا يعني حدوث نوبة واحدة أن الشخص مصاب بالصرع (يصاب 10% من الناس حول العالم بنوبة واحدة خلال حياتهم). ويعرف الصرع بأنه التعرض لنوبتين غير مسببتين أو أكثر. ويُعد الصرع من أولى الحالات الصحية التي تعرف الإنسان عليها، حيث تشير إليها كتابات سُجلت في عام 4000 قبل الميلاد. وقد أحاط الخوف والتمييز والوصم الاجتماعي بالصرع على مدى قرون. ويستمر هذا الوصم في العديد من البلدان حتى يومنا هذا، وقد يؤثر على نوعية حياة الأشخاص الذين يعانون من هذا الاضطراب وأسرهم".

انظر الرابط التالي:

https://www.who.int/ar/news-room/fact-sheets/detail/epilepsy

تاريخ زيارة الموقع : 1/ 4/1442هـ

عليها معانٍ من فهمه السقيم وتصوره الآثم، يقول الرصافي في كتابه "الشخصية المحمدية": "كانت تعتريه- يقصد النبي ﷺ – قبل النبوة وبعدها حالة يُعبّر عنها أهل السير وحفاظ الحديث بقولهم :" أخذه ما يأخذه عند نزول الوحي" فنحن هنا نصف لك هذه الحالة بما هو مذكور في كتب القوم لتعرفها وتراها بصورتها كما هي: قال صاحب السيرة الحلبية:" روى ابن إسحق عن شيوخه أنه كان يرقي من العين وهو بمكة، قبل أن ينزل عليه القرآن ، فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما يصيبه قبل ذلك، قال: وهذا يدل على أنه كان يصيبه قبل نزول القرآن ما يشبه الإغماء بعد حصول الرعدة وتغميض عينيه وتربد وجهه ويغط كغطيط البكر. فقالت له خديجة : أُوجه إليك من يرقيك ؟ قال: أما الآن فلا[1]. قال صاحب السيرة الحلبية : ولم أقف على من كان يَرقيه ولا على ما كان يرقي به[2]، معنى قوله : (تربد وجهه) تغيّر وصار فيه لون الرَّبدة وهي الغَبرة . معنى قوله(غطّ) نَخر بصوت كصوت المذبوح والمخنوق يتردد فيه النفس صاعدة إلى الحلق. و الْبَكْرِ الفتي من الإبل وغطيطه هديره في الشقشقة يُقال: غطّ البعير غطيطاً إذا هدر في الشَقْشَقَة فإذا لم يكن في الشَقْشَقَة أي فهو هَدير والناقة تهدر ولا تَغط لأنها لا شَقْشَقَة لها[3]. ومما ذكروه عن هذه الحالة أنه كان يجد ثقلاً عند نزول الوحي، ويتحدر جبينه عرقاً في البرد[4] كأنه الجمان[5]، وربما غط كغطيط البكر

(1) أخرجه ابن إسحاق في "السير" 124، وإسناده ضعيف؛ لإبهام شيوخ ابن إسحاق .
(2) "السيرة الحلبية"، للحلبي 360/1 .
(3) انظر: "غريب الحديث" ، للخطابي 411/1 ، "الصحاح" 1146/3 .
(4) ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه البخاري 2، ومسلم2333.
(5) ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه البخاري 2661، ومسلم 2770. والجُمَان بضم الجيم وتخفيف الميم: اللؤلؤ. انظر: فتح الباري (477/8).

محمرة عيناه[1]. وعن زيد بن ثابت قال: كان إذا نزل الوحي على رسول الله ثقل لذلك، ومرة وقع فخذه على فخذي فوالله ما وجدت شيئاً أثقل من فخذ رسول الله[2]. وربما أُوحي إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن ذراعها ينفصم، وربما بركت[3]، وذكروا أنه لما نزلت سورة المائدة عليه كان على ناقته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها، فاندق كتف راحلته العضباء من ثقل السورة[4]، وعن أسماء بنت عميس كان رسول الله إذا نزل عليه الوحي يكاد يُغشى عليه [5]، وفي رواية يصير كهيئة السكران[6]. وفي مسلم عن أبي هريرة كان رسول الله إذا نزل عليه الوحي لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى ينقضي الوحي[7]، وفي لفظ كان

(1) ورد في حديث يعلى بن أمية ﷺ المخرج في البخاري 1789، ومسلم 1180.

(2) ورد في حديث زيد بن ثابت ﷺ المخرج في البخاري 2832.

(3) ذكره في " السيرة الحلبية" 367/1. وقد أخرج الإمام أحمد 28223 حديث أَسْمَاء بِنْتِ يَزِيدَ قَالَتْ : إِنِّي لَآخِذَةٌ بِزِمَامِ الْعَضْبَاءِ – نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم – إِذْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ – الْمَائِدَةُ – كُلُّهَا ، فَكَادَتْ مِنْ ثِقَلِهَا تَدُقُّ بِعَضُدِ النَّاقَةِ". وإسناده ضعيفٌ؛ لضعف ليث بن أبي سليم، وشَهْرِ بنِ حَوْشب. انظر في الأول : "التقريب" 400، وفي الثاني: التقريب 269. وللاستزادة في تخريجه ، انظر: الحديث الثامن عشر في بحث "الأحاديث الواردة في وصف النبي صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحي جمعاً ودراسة".

(4) أخرجه ابن أبي شيبة في " مسنده" 660، وابن أبي عاصم في " الآحاد والمثاني" 1226.

(5) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" 391، والطحاوي في " شرح مشكل الآثار" 1068 من طرقٍ مختلفة، وهو حديث موضوع، فيه رواة مجاهيل. قال ابن الجوزي في " الموضوعات"356/1:"موضوع بلا شك". وانظر: "المنار المنيف" 57، "البداية والنهاية" 85/6.

(6) أخرجه ابن سعد في "الطبقات" 1/ 197 عن عبيد الله بن موسى العبسي، قال: أخبرنا إسرائيل، عن جابر، عن عكرمة قال: فذكره مرفوعاً. وهذا إسناد ضعيف جداً؛ فإنه مع إرساله؛ فيه جابر وهو ابن يزيد الجعفي. ضعيف. انظر : التقريب 137.

(7) أخرجه مسلم 1780.

إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة [1]، وفي رواية كرب لذلك وتربد وجهه وغمّض عينيه[2] وربما غط كغطيط البكر[3]. وعن زيد بن ثابت : كان إذا نزل على رسول الله السورة الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السورة، وإذا نزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك قدر لينها[4]. وعن عمر بن الخطاب

(1)أخرجه ابن أبي شيبة –كما في "المطالب العالية" 3781–، وابن أبي عاصم في " الآحاد والمثاني" 3443، والطبراني في المعجم الكبير 636 مِنْ طريق حَفْصُ بْنُ سَعِيدٍ الْقُرَشِيُّ الْأَعْوَرُ , قَالَ: حَدَّثَتْنِي أُمِّي , عَنْ أُمِّهَا , وَكَانَتْ خَادِمَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ جَرْوًا دَخَلَ بَيْتَنَا تَحْتَ السَّرِيرِ فَمَكَثَ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ لَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فَقَالَ: يَا خَوْلَةُ مَا حَدَثَ فِي بَيْتِ نَبِيِّ اللَّهِ جِبْرِيلُ لَا يَأْتِينَا فَمَا حَدَثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ , مَا أَتَى عَلَيْنَا يَوْمٌ خَيْرٌ مِنَ الْيَوْمِ فَأَخَذَ بُرْدَةً فَلَبِسَهَا ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَتْ لِي: هَيَّأْتِ الْبَيْتَ وَكَنَسْتِهِ فَأَهْوَيْتُ بِالْمِكْنَسَةِ تَحْتَ سَرِيرِهِ فَإِذَا شَيْءٌ ثَقِيلٌ فَلَمْ أَزَلْ أُهَيِّئُهُ حَتَّى بَدَا لِي الْجَرْوُ مَيِّتًا فَأَخَذْتُهُ بِيَدِي فَأَلْقَيْتُهُ خَلْفَ الدَّارِ وَجَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُرْعَدُ لِحْيَتُهُ وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ اسْتَبْطَنَتْهُ الرِّعْدَةُ فَقَالَ: يَا خَوْلَةُ دَثِّرِينِي فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ **[الضُّحى:1-2]** إِلَى قَوْلِهِ :﴿فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: 5] فَقَامَ مِنْ نَوْمِهِ فَوَضَعْتُ لَهُ مَاءً فَتَطَهَّرَ وَلَبِسَ بُرْدَتَهُ.

وهذا الحديث إسناده ضعيف؛ فيه حفص بن سعيد القرشي، مجهولٌ. انظر: "التاريخ الكبير" 2/ 363، 368، الجرح والتعديل 3/ 174، الثقات لابن حبان 6/ 199.

كما أن في الإسناد أم حفص بن سعيد القرشي. مجهولة. قال الهيثمي في "مجمع الزوائد " 7/ 138 :" رواه الطبراني، وأم حفص **لا** أعرفها". قال ابن عبد البر: ليس إسناد هذا الحديث مما يحتج به" الاستيعاب 12/ 309 .

وفي الحديث شذوذ ومخالفة ، قال ابن حجر في **"**فتح الباري" 710/8:" وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريبٌ بل شاذٌ مردودٌ بما في الصحيح. والله أعلم".

(2) ورد في حديث عبادة بن الصامت المخرج في مسلم 2334.

(3) ورد في حديث يعلى بن أمية المشار إليه آنفاً.

(4) أخرجه المحاملي في "أماليه"171 قال :"حدثنا عبد الله بن شبيب قال: حدثنا أحمد بن محمد، قال: وجدت في كتاب أبي، عن أبي الزناد، عن خارجة بن زيد، عن زيد بن ثابت قال إذا نزل عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ السورة الشديدة أخذه الشدة والكرب على قدر شدة السورة وإذا نزل عليه السورة اللينة أصابه من

=

كان إذا نزل على رسول الله الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل[1]. ومن هذه الأقوال وهذه الروايات تستطيع أن تعرف تلك الحالة التي كانت تعتريه وتعرض له قبل النبوة وبعدها ، وأن تتصور ما كان يصيبه فيها من البرحاء، وإذا أنعمنا النظر جيدة في أعراضها التي هي الرعدة ، وشبه الإغماء ، وتربد الوجه ، واحمرار العينين ، والغطيط كغطيط البكر ، وتحدر العرق من الجبين في البرد الشديد ، وثقل الجسم بحيث لم تستطع الناقة أن تحمله ، وصيرورته كهيئة السكران ، وحصول دوي عند وجهه كدوي النحل ، علمنا أنها ليست إلا حالة كحالة المصروع لأن هذه الأعراض ليست إلا من أعراض الصرع ، وأن كل من به صرع لا يكون إلا كذلك . ثم أن هذه الحالة المتكررة الوقوع لم تكن تقع له على نمط واحد بل كانت تقع له مختلفة في الشدة واللين ، فمرة كانت تقع له شديدة بحيث تكون جامعة للأعراض المذكورة كلها ، وهي التي كان يسمع فيها صوتاً كصلصلة الجرس ، كما سنذكره في بيان صور الوحي ، ومرة تكون كالإغفاءة الخفيفة ، ومرة يكون فيها هيئة السكران، وهذه هي التي كان يرى فيها جبريل كأنه يراه من وراء غربال كما جاء في رواية عنه، أنه قال : وإن جبريل كان يأتيني فيكلمني وكنت أراه أحياناً كما يرى الرجل صاحبه من وراء غربال »[2] ومعلوم

ذلك على قدر لينه".وإسناده ضعيف؛ فيه عبد الله بن شبيب، أخباري علامة لكنه واهٍ. انظر: "لسان الميزان" 499/4.

(1) أخرجه الترمذي 3173. وإسناده ضعيف؛ لجهالة يونس بن سليم. انظر: "الضعفاء"، للعقيلي 6/ 451. وللاستزادة في تخريجه ، انظر: الحديث التاسع في بحث "الأحاديث الواردة في وصف النبي صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحي جمعاً ودراسة". .

(2) أخرجه أبو الشيخ في كتاب "العظمة" 780/2 –ومن طريقه أبو نعيم في "دلائل النبوة" 177/1–، قال :" حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس، حدثنا سلمة، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد رحمه الله تعالى، قال: لما صعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء فأوحى الله عز

=

أن الرجل إذا رأى صاحبه من وراء غربال فإنما يراه شبحاً لا يُميزه كل التمييز . غير أن محمدا كان على حال من هذه الحالة مالكة لوعيه لا ينقطع عن الحس الخارجي ولا يغيب عنه غيبوبة تامة ، وهذه ميزة لمحمد خاصة به لم نعلم أنها أعطيها أحد غيره من الناس ، وهي المراد من قوله عن نفسه " تنام عيني ولا ينام قلبي"[1] يريد بالنوم هذه الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي ، وإلا فهو قد نام عن صلاة الصبح ولم يستيقظ حتى ضربته الشمس كما وقع له ذلك في غزوة تبوك أو في غزوة خيبر أو في كلتيهما على ما يقوله بعض الرواة[2]. وله ميزة أخرى أيضا امتاز بها على غيره من الناس وهي أن نومه في هذه الحالة مع كونه

وجل إلى عبده ما أوحى، قال: " فلما أحس جبريل بدنو الرب تبارك وتعالى خر ساجدا، فلم يزل يسبحه: سبحان ذي الجبروت، والملكوت، والكبرياء، والعظمة، ثم قضى الله عز وجل إلى عبده ما قضى، ثم رفع رأسه فرأيته في خلقه الذي خلق عليه، منظوم أجنحته بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت، فخيل إلي أن ما بين عينيه قد سد الأفق، وكنت لا أراه قبل ذلك إلا على صور مختلفة، وأكثر ما كنت أراه على صورة دحية الكلبي، وكنت أحيانا لا أراه قبل ذلك إلا كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال "

وهذا إسناد ضعيف؛ لإرساله ، وشُريح بن عبيد كان يرسل كثيراً . "التقريب"434.

(1) أخرجه البخاري 3569، ومسلم 738.

(2) أخرجه مسلم680 عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ حين قَفَلَ من غزوة خَيْبَرَ سار ليلةً ، حتى إذا أَدْرَكه الكَرَى عرَّسَ، وقال لبلال : " اكْلأ لنا الليلَ". فصلى بلال ما قُدِّرَ له ، ونام رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، فلما تقَارَبَ الفجرُ استنَدَ بلالٌ إلى راحلته مُوَاجِهَ الفجرِ، فغلبتْ بلالاً عيناه وهو مُسْتَنِدٌ إلى راحلته ، فلم يستيقظ رسولُ الله ﷺ ولا بلالٌ ولا أحدٌ من أصحابه حتى ضربتْهم الشمسُ ، فكان رسولُ الله ﷺ أوَّلهم استيقاظاً ، ففزِع رسولُ الله ﷺ ، فقال : "أَيْ بلالُ! " فقال بلال: أَخذَ بنفسي الذي أَخذَ بنفسك – بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ الله – قال : اقتادوا، فاقتادوا رَوَاحِلَهم شيئاً ، ثم توضَّأ رسولُ الله ﷺ ، وأَمر بلالاً ، فأقام للصلاة ، فصلَّى بهم الصبح ، فلما قضى الصلاة قال :من نَسِيَ الصلاة فليصلِّها إذا ذكرها، فإن الله تعالى قال :" ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٰ ١٤﴾ [طه:14]". قال يونس: وكان ابن شهاب يقرؤها: للذِّكرَى".

يغيب فيه عن الحس الخارجي غيبوبة تامة ، كان كافية لانتباه عقله الباطني فيري وهو في تلك الحالة ما يرى ، ويسمع ما يسمع بسبب انتباه العقل الباطني فيه ، فيكون ما يراه ويسمعه وهو في تلك الحالة من قبيل الرؤيا التي لا يراها غيره إلا في النوم الاعتيادي . وقد قلنا لك فيما تقدم عند الكلام على قوة خياله إن محمدا كان عقله الباطني الكامن في غرائزه على حالة فيها خرق للعادة وشذوذ عن غيره من سائر الناس ، فإن عقله الباطني كان لا يتوقف في انتباهه على تعطل الحواس الظاهرة بالمرة بل كان قد يكون عقله الباطن في بعض الأحيان فعالاً بأدنى فتور يعتريه أو بأقل سنة تأخذه وهو في اليقظة . بقيت هناك مسألة أخرى وهي أن نقول بأن هذه الحالة التي كانت تأخذه عند الوحي والتي قلنا إنها كحالة الصرع ، لا علاقة لها بالوحي ، وليست هي من لوازمه بدليل أنها كانت تعتريه قبل النبوة وقبل أن يوحى إليه . فإن قلت: إذا كانت هذه الحالة لا علاقة لها بالوحي ، فلماذا كانت تعتريه عند نزول الوحي في الغالب ، حتى أن الصحابة جعلوها من حالات الوحي ، فعبروا عنها بقولهم أخذه ما يأخذه عند الوحي ، قلت قد ذكرنا لك فيما تقدم أن محمدا كان عميق التفكير ، وأنه كان شديد التأثر والانفعال ، وأن مجموعه العصبي كان من التهيج في حالة غير اعتيادية ولا موجودة عند غيره من الناس لذلك كان إذا فكر في أمر أثر تفكيره في أعصابه فتأخذه هذه النوبة العصبية ، ولا شك أن الوحي تفكير في بعض صوره ، كما يكون إلهامة وإلقاء في الروع في بعض صوره الأخرى . فإذا حدث حادث يستوجب الوحي الذي هو تفكر ، أخذ محمد يفكر في ذلك الحادث فيؤثر تفكيره في أعصابه ، فتأخذه تلك الحالة بدليل أنه إذا كان تفكيره شديدة كانت هذه الحالة شديدة أيضا ، وإذا لم يكن كذلك لم تكن شديدة يدلك على ذلك ما ذكرناه آنفة عن زيد بن ثابت ، قال : كان إذا نزل على رسول الله السورة الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السورة ، وإذا نزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك

على قدر لينها). فهذه الحالة ليست من لوازم الوحي وإنما هي مسببة عنه أي عن التفكير فيه . والدليل على أنها ليست من لوازمه أن الوحي في بعض الأحيان يكون بدون حصول هذه الحالة ، كما سنذكره عند الكلام على صور الوحي ، وأن هذه الحالة كانت قبل النبوة تكون بدون وحي ، ويدلك على أن الوحي ، تفكير وأنه كان تفكير عميقة مؤثرة فيه ما روي عنه أنه قال : شيبتني هود واخواتها ، فقال له أبو بكر : ما أخواتها يا رسول الله ؟ قال : الواقعة ، والقارعة ، وسأل سائل ، وإذا الشمس كورت ، واقتربت الساعة [1]. فمن هذا الحديث تعلم أنه كان يجهد نفسه افتكاراً وترويأً في ترتيب هذه السور وأحكام نظمها، ونُورد لك هنا صورة من صور الوحي يتضح لك بها جليا أن حدوث هذه الحالة عند الوحي إنما هو مسبب عن تفكيره في الأمر المراد نزول الوحي به عن تأثير تفكيره في أعصابه، وذلك أنه لما كان بالجعرانة (ماء بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب) منصرفه من غزوة حنين جاءه أعرابي عليه جبة وهو متضمخ بخلوق وقد أحرم بعمرة فقال : افتني يا رسول الله ، وفي رواية قال : كيف ترى في رجل

(1)أخرجه الترمذي 3297، والحاكم 3333، والبيهقي في "دلائل النبوة" 1 / 357، وغيرهم من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس ، عن أبي بكر ﷺ .

والحديث مداره على أبي إسحاق، وقد اختلف عليه واختلف على الرواة عنه، وأبو إسحاق ثقة مكثر عابد اختلط بأخرة . انظر : "التقريب" 423 .

وقد رجح أبو حاتم وجه الإرسال، قال ابنه: "وسئل أبي عن حديث أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ قال أبو بكر للنبيﷺ ما شيبك؟ قال: شيبتني هود ...، الحديث متصل أصح؛ كما رواه شيبان، أو مرسل؛ كما رواه أبو الأحوص مرسل؟، قال: مرسل أصح. قال أبو محمد: قلت لأبي: روى بقية، عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبي بكر، عن النبي ﷺ. فقال: هذا خطأ؛ ليس فيه «ابن عباس»، ورجحه أيضا في موضع آخر فقال: "ورواه شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، أن أبا بكر قال للنبي ﷺ؛ وهذا أشبهها بالصواب، والله أعلم". "العلل" 171/5 ، وانظر: "العلل"، للدار قطني 1/ 196.

أحرم في جبة بعد ما تضمخ بطيب ، فسكت رسول الله ساعة ثم أخذه ما يأخذه عند الوحي فلما سري عنه قال : أين السائل عن العمرة ؟ اخلع عنك الجبة واغسل عنك أثر الخلوق ، وفي رواية قال له : ما كنت تضع في حجتك ؟ قال : اخلع عنك الجبة وأغسل هذا الخلوق ، فقال : اصنع في عمرتك ما كنت صانعاً في حجتك[1].. فانظر كيف سكت ساعة يفكر في المسألة ، فأثر تفكيره في أعصابه حتى أخذته تلك الحالة التي تأخذه كما يقولون عند نزول الوحي ..." [2].

المبحث الثاني

الرد على هذه الشبهات

في البدء لا بد من بيان أن هذا الإفك المفترى من الرصافي سُبق إليه في أصل فكرته ، فما هو إلا امتدادٌ لسلسلةٍ باغيةٍ خاطئةٍ بدأت منذ عهد النبي ﷺ؛ هدفها تشويه دعوة الإسلام والصد عن الحق، فكفار قريش كانت بدايتهم في اتهام النبي ﷺ في عقله، وقد كَرّروها كثيراً، وما كان لهم من حجة إلا أن يقولوا: شاعرٌ أو مجنون، وكانوا يُحذرون الناس من النبي ﷺ بهذه الدعوى، قال الله ﷻ : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ٦ ﴾ **[الحِجر:6]** وقال ﷻ : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦ ﴾ **[الصافات:36]** وقال ﷻ : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ ﴾ **[ص:4]** وقال ﷻ : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٞ ١٤ ﴾

(1) حديث يعلى بن أمية تقدم تخريجه .

(2) "الشخصية المحمدية"، للرصافي 114-117.

[الدخان:14] وقال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ **[الذاريات:52-53]**.

ثم تطورت هذه الفرية حتى وصلت إلى بعض المستشرقين، فرأوا أنه من الصعوبة بمكان أن يُقذف النبي ﷺ بأي منقصة، وهو الذي حازت دعوته هذا القبول وتمكنت من الإقناع بحجة الدليل، فانطلقوا إلى تطوير المصطلح بما يناسب العرض والقبول فوصفوه بالصرع ، يقول غوستاف لوبون :" وقيل: إن محمدا كان مصابًا بالصرع، ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح القَطع في هذا الرأي، وكل ما في الأمر هو ما رواه معاصرو محمد، وعائشة منهم، من أنه كان إذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقانٌ وجهيٌ فغطيط فغشيان، وإذا عدوت هوس محمد، ككل مفتون، وجدته حصيفاً سليم الفكر"[1].

وفي موضع آخر قال :" ويجب عدّ محمد من فصيلة المهووسين من الناحية العلمية كما هو واضح، وذلك كأكثر مؤسسي الديانات..." [2].

وقَبِلَ الرصافيُّ هذه الفريةَ بل زادَ عليها، وكانت زيادته متمثلة في القطع في العبارة بهذه الطريقة الفجة الآثمة والموغلة في انعدام أي قيمة علمية، وعدم احترام مبادئ البحث العلمي القائمة على الاستقراء والتحليل والدقة في العبارة، إضافة إلى أنه قام بتسليط الضوء على أحاديث النبي ﷺ هذه الخاصة بوصفه ﷺ حال نزول الوحي، واعتبرها مادة داعمة لشبهته، حيث استعرض أحاديث متعددة ووقف عند ألفاظها –كما تقدّم– مفترياً ومدعياً أن هذه الأوصاف تدل على إصابة النبي ﷺ بالصرع، وأن ما كان يراه الصحابة منه حال نزول الوحي ما هي

(1) "حضارة العرب"، غوستاف لوبون 118.

(2) المرجع نفسه .

إلا أعراض لذلك الداء, وشبهته هذه من أخبث الشبهات، حيث الهدف منها التشويه المضاعف الذي يُراد منه التنفير من الدين ومن القرآن ومن شخص النبي ﷺ .

وبما أن الشبهات وردت على هذه الأحاديث فسيكون الرد عليها من خلالها، وهي التي جاءت بإظهار هذا المقام الكريم للنبي ﷺ في بيانٍ شافٍ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وسيكون بيان ذلك من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : الوحي حال خاصة بالأنبياء :

يحتاج من يكتب في باب الوحي أن يُراجع الكتب الخاصة بالنبوات، والتي تَعتبر النبوة أصلاً من الأصول وشرفاً اختص الله به من شاء من عباده، فالله ﷻ أعلم حيث يجعل رسالته، وهي نعمة من الله، قال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ **[مريم:58]**، كما أن هذه الكتب تتطرق إلى قضايا أساسية في النبوة، من مثل الحديث عن حقيقة النبوة، والحكمة من بعث الرسل، ووظائف المرسلين وما أيّدهم الله ﷻ به من البراهين، ونحو ذلك.

إن على الباحث الذي يهتم بأمر الحقيقة أن يكون حصيفاً في عدم الدخول فيما يجهله حتى يتعلمه، وأن لا يسمح للانطباعات الذاتية والمتأثرة بقراءات مختلفة باتخاذ القرارات دونه أو الصدور عن آراء لا تثبت في ميزان العلم والعقل، وهذه أساسات الشطط عند الرصافي الذي تقحم هذا الموضوع وولجه من غير علم ولا حصافة.

لقد بعث الله ﷻ نبيه ﷺ بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله، أيّده الله ونصره وعزّره، وكانت أعلى مقامات التأييد ذلكم الوحي الذي كان يأتي النبي

ﷺ على حال خاصة لا يَشركه فيها أحدٌ من العالمين، وقد أظهرت الأحاديث الواردة في هذا الباب معاناته ﷺ مع شدة الوحي، وهذا أمر ظاهرٌ للنبي ﷺ ولمن كان يُخاطبهم، ففي حديث عائشة كان يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس[1]، وهذا أشده عليه ﷺ –كما قال–، وهذا يدل على أن الوحي كله شديد، وقد وصف الخطابي هذه الصلصلة بقوله :" صوتٌ متدارِكٌ يَسمعه ولا يتثبّته عند أول ما يَقرع سمعه حتى يتفهم ويستثبت، فيتلقفه حينئذٍ ويَعيه، ولذلك قال: (وهو أشده علي)" [2].

وعلى قول الخطابي فالصلصلة هي الوحي في بدايته حتى يجري له الاستثبات والتفهم ويكون السماع خالصاً للوحي الذي نزل بطريقة خاصة في الأداء، قال القاضي عياض:" قال أئمتنا: معنى هذا: أن صوت الملك النازل عليه بالوحي هو مثل صلصلة الجرس؛ وذلك ليستغرقه عن أمور الدنيا، ويُفرغ حواسه الصوت الشديد، حتى لا يسمع غيره فيتخلص لسماعه، ويفهم ما يُلقى إليه، وهذا فائدة الغط في الحديث الآخر"[3].

وذكر ابن حجر قولاً آخر، فقال:" وقيل: بل هو صوت حفيف أجنحة الملك، والحكمة في تقدمه أن يقرع سمعه الوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره، ولما كان الجرس لا تحصل صلصلته إلا متداركة وقع التشبيه به دون غيره من الآلات"[4].

(1) أخرجه البخاري 2، ومسلم2333.

(2) "إعلام الحديث"، للخطابي 121/1.

(3) "إكمال المعلم"، للمازري 299/7. وانظر:"شرح ابن بطال" 36/1، و"التوضيح" 230/2. و يُشير القاضي بقوله :" حديث الغط". إلى حديث يعلى بن أمية المتقدّم تخريجه.

(4) "فتح الباري"، لابن حجر 20/1.

وقد أخبرت عائشة رضي الله عنها بما كان يقع للنبي صلى الله عليه وسلم مما يلحظه من كان يشاهده من حالٍ خاصةٍ فريدةٍ مخالفةٍ للعادة، حيث تأخذه الرُّحضاء ويتفصد جبينه عرقاً لذلك كحال المحموم، فتقول :" وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا"[1]، قال الكرماني:" وشبّه جبينه بالعرق المفصود، مبالغةً في كثرة العرق، كما أن باب التفعل يدل عليها، وكذا ذكر التمييز وهو (عرقاً)؛ لأنه توضيح بعد إبهام وتفصيل بعد إجمال، وكذا قولها (في اليوم الشديد)، كما أن فيه دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي "[2].

وقال ابن حجر:"وفي قولها :(في اليوم الشديد البرد) دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي؛ لما فيه من مخالفة العادة: وهو كثرة العرق في شدة البرد، فإنه يشعر بوجود أمر طارئ زائد على الطباع البشرية"[3].

إن هذه شواهد واضحةٌ لمن طلب الحق، وفيها بيانٌ شافٍ في أن ما كان يأتي النبي ﷺ خُصّ به ولم يكن يأتي سائر البشر، ولكن يأبى الرصافي إلا العمى والضلال، حيث يقول :" علمنا أنها ليست إلا حالة كحالة المصروع؛ لأن هذه الأعراض ليست إلا من أعراض الصرع، وأن كل من به صرع لا يكون إلا كذلك". ويجعل الرصافي هذه الأحاديث الصحيحة التي جاءت بهذه الأحوال الخاصة بمقام ما أورده من حديث ابن إسحق عن شيوخه أنه كان ﷺ يُرقى من العين وهو بمكة... وهي محاولة فاشلة تدل على الجهل المركب؛ لعدة أمور:

(1) تقدّم تخريجه.

(2) "الكواكب الدراري"، للكرماني 28/1. وانظر: "التوضيح"، لابن الملقن 230/2.

(3) "فتح الباري"، لابن حجر 21/1.

أولها: أن أحاديث الوحي أحاديث صحيحة ثبتت بالأسانيد القوية في الصحاح وفي غيرها، فلا مقارنة بينها وبين هذه الحديث المنكر الذي جاء برواية المجاهيل-كما تقدّم بيان ذلك- .

ثانيها: أن هذا الحديث مخالفٌ لما أجمع عليه المؤرخون قاطبة من حصافة النبي ﷺ وعقله ومكانته في قومه قبل البعثة، فهو الصادق الأمين الذي حكّمه دهاة العرب في حل خلافاتهم الكبيرة وفض نزاعاتهم القوية، جاء في مسند الإمام أحمد[1] بإسنادٍ صحيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ مَوْلَاهُ أَنَّهُ حَدَّثَهُ، أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ يَبْنِي الْكَعْبَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: وَلِي حَجَرٌ أَنَا نَحَتُّهُ بِيَدَيَّ أَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَأَجِيءُ بِاللَّبَنِ الْخَاثِرِ الَّذِي أَنْفَسُهُ عَلَى نَفْسِي، فَأَصُبُّهُ عَلَيْهِ، فَيَجِيءُ الْكَلْبُ فَيَلْحَسُهُ، ثُمَّ يَشْغَرُ فَيَبُولُ فَبَنَيْنَا حَتَّى بَلَغْنَا مَوْضِعَ الْحَجَرِ، وَمَا يَرَى الْحَجَرَ أَحَدٌ، فَإِذَا هُوَ وَسْطَ حِجَارَتِنَا مِثْلَ رَأْسِ الرَّجُلِ يَكَادُ يَتَرَاءَى مِنْهُ، وَجْهُ الرَّجُلِ فَقَالَ: بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ نَحْنُ نَضَعُهُ، وَقَالَ: آخَرُونَ نَحْنُ نَضَعُهُ، فَقَالُوا: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ حَكَمًا، قَالُوا: أَوَّلَ رَجُلٍ يَطْلُعُ مِنَ الْفَجِّ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا: أَتَاكُمُ الْأَمِينُ، فَقَالُوا لَهُ، " فَوَضَعَهُ فِي ثَوْبٍ، ثُمَّ دَعَا بُطُونَهُمْ فَأَخَذُوا بِنَوَاحِيهِ مَعَهُ، فَوَضَعَهُ هُوَ ﷺ.

ثالثها : أن أحاديث الوحي الصحيحة جاءت بأوصاف خاصة تفصيلية، فأين هي وهذا الحديث الذي ورد مجملاً؟!

رابعها: أن أحاديث الوحي جاءت بصفاتٍ أدرك خصوصيتها من حول النبي ﷺ، حتى من المشركين، ولم يقل أحدٌ منهم كان يأتيه ما يأتي المصروعين أو نحو ذلك، وما وصموه به من السحر والجنون إنما كان على جهة النكاية، وقد حاولوا جهدهم في إثباتها ولكن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وهم الذين يعرفون

(1) (15504).

الصرع والمرض وما يأتي الناس من الأدواء، ومنهم من دخل في دين الله ﷻ لما ظهر له قوة الحجة وبيان الحق، وهذا أمر ظاهرٌ لا يخفى على أحد، فعمر رضي الله عنه وهو المعروف بالشجاعة والقوة في الحق ومراجعة النبي ﷺ في بعض الأمور، كان يعرف ما كان يأتي النبي ﷺ حال الوحي وأنها حال خاصة لم يدركها من النبي ﷺ قبل البعثة، ولم يقل كان يأتي النبي ﷺ ما كان يأتيه من الصرع قبل البعثة، وكان قريباً من النبي ﷺ يراه على هذه الحال ويعرف أنها حال خاصة من الجلال والبهاء، فيها أوصافٌ ليست لأحد من البشر، جاء في حديث يعلى بن أمية :" كَانَ عُمَرُ يَسْتُرُهُ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، يُظِلُّهُ، فَقُلْتُ لِعُمَرَ رضي الله عنه: إِنِّي أُحِبُّ، إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، أَنْ أُدْخِلَ رَأْسِي مَعَهُ فِي الثَّوْبِ، فَلَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، خَمَّرَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالثَّوْبِ"(1).

قال النووي:" وأما إدخال يعلى رأسه ورؤيته النبي ﷺ في تلك الحال وإذن عمر له في ذلك فكله محمول على أنهم علموا من النبي ﷺ أنه لا يكره الاطلاع عليه في ذلك الوقت وتلك الحال؛ لأن فيه تقوية الإيمان بمشاهدة حالة الوحي الكريم. والله أعلم"(2).

فالأمر يُعلن ولا يُستر، وما كان أحدٌ يجد حرجاً أو زعزعة في إيمانه لرؤية النبي ﷺ في هذه الحال الخاصة، بل فيها زيادة الإيمان وثبات اليقين، وإن أهم ما ورد في وصف يعلى: وصف الصوت الذي كان يخرج من النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كغطيط البكر، فهو صوت النفس المتردد من النائم –كما تقدّم–، وسبب ذلك شدة ثقل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم (3)، كما رافق ذلك حُمرة في

(1) هذه الرواية أخرجها مسلم 1180.
(2) "شرح النووي على مسلم" 80/8.
(3) المصدر المتقدّم 79/8.

وجه النبي صلى الله عليه وسلم " مُحْمَرُّ الْوَجْهِ"، وقد ورد في حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ:" كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ كُرِبَ لِذَلِكَ، وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ" [1]، ومعنى: "تربد وجهه"، أي تغيّر لونه، وصار كلون الرماد[2]، ولا اختلاف بين الحديثين، قال النووي تعليقاً على حديث عبادة:" وفي ظاهر هذا مخالفة لما سبق في أول كتاب الحج في حديث المحرم الذي أحرم بالعمرة وعليه خلوق، وأن يعلى بن أمية نظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحي وهو محمر الوجه، وجوابه أنها حمرة كدرة وهذا معنى التربد، وأنه في أوله يتربّد ثم يحمّر أو بالعكس"[3] .

إذن لم يكن الرصافي معنياً بهذه المعلومات الدقيقة التي جاءت في وصف النبي ﷺ وتحليلها ودليلها، بقدر ما هو مشغوف بأن يُخرج ترهاته وما تتحدث به نفسه وتفيض به خواطره [4]حتى ولو كانت من القبح والسوء ما كانت .

لقد قال الرصافي في مقدمة كتابه:" ولئن أرضيت الحقيقة بما أكتبه لها لقد أسخطت الناس عليَّ، ولكن لا يضرني سخطهم إذا أنا أرضيتها، كما لا ينفعهم رضاها إذا كانت على أبصارهم غشاوة من سخطهم عليَّ، وعلى قلوبهم أكنة من بغضهم إياي"[5].

(1) أخرجه مسلم 2334.

(2) انظر: "الغريبين في القرآن والحديث"، لأبي عبيد الهروي 701/3.

(3) "شرح النووي على مسلم" 89/15 ، وانظر: "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح"، لنور الدين الملا الهروي القاري 9/ 3737 .

(4) تقدّم قول الرصافي :" كنت أدونها كلما خطر لي خاطر حول هذا الموضوع"! فما عنده ما هي إلا خواطر شيطانية ليس لها حظ من الاستدلال والتحليل العلمي.

(5) "الشخصية المحمدية" 15.

وكان الأجدر بمن هذه مراده أن يكون غيوراً على نتاجه، فلا يطرحه مجرداً من الدليل والحجة، بل يَحتفي به ويُعنى بأن يكون بناؤه على أصول منهج البحث العلمي.

إن الرصافي مع ما سيأتي من استدلاله بالأحاديث المنكرة والموضوعة فهو أيضاً يربطها بغيرها من الأحاديث الصحيحة ليخرج بنتائج لا تمت للعلم بصلة، ومن ذلك قوله :" فمرة كانت تقع له شديدة بحيث تكون جامعة للأعراض المذكورة كلها، وإن جبريل كان يأتيني فيكلمني وكنت أراه أحياناً كما يرى الرجل صاحبه من وراء غربال، غير أن محمدا كان على حال من هذه الحالة مالكة لوعيه لا ينقطع عن الحس الخارجي ولا يغيب عنه غيبوبة تامة ، وهذه ميزة لمحمد خاصة به لم نعلم أنها أعطيها أحد غيره من الناس ، وهي المراد من قوله عن نفسه " تنام عيني ولا ينام قلبي"...".

تقدّم أن حديث جبريل حديث ضعيف، وعلى فرض صحته، فهو لا يمت للحديث الآخر بصلة، ومع هذا فالرصافي يُواصل في هذا الخيال البعيد عن الحجة والبرهان، وقد خرج بقبول الحديث الآخر:" تنام عيني ولا ينام قلبي " وربطه بهذا الحديث، والنتيجة عنده :" أن محمدا كان على حال من هذه الحالة مالكة لوعيه لا ينقطع عن الحس الخارجي ولا يغيب عنه غيبوبة تامة كان كافية لانتباه عقله الباطني..."، وبينما حديثه عن ادعاء الصرع وأوصافه التي كانت تظهر، يخرج في مسار آخر إلى النوم، ويأخذ منه نتيجة " العقل الباطن"، ويواصل تخبطه في استدلاله بحديث :"شيبتني هود وأخواتها ، فيقول :"ويدلك على أن الوحي، تفكير وأنه كان تفكير عميقة مؤثرة فيه ما روي عنه أنه قال : شيبتني هود واخواتها...". ثم يختم دعواه بتعليقه على حديث يعلى بن أمية ،فيقول :" اخلع عنك الجبة وأغسل هذا الخلوق ، فقال : اصنع في عمرتك ما كنت صانعاً في حجتك.. فانظر كيف سكت ساعة يفكر في المسألة، فأثر

تفكيره في أعصابه حتى أخذته تلك الحالة التي تأخذه كما يقولون عند نزول الوحي".

إن هذا كلامٌ مضطربٌ، حيث الربط العشوائي بين قضايا النقاش وإخراج الأفكار المشوهة والتخبط في الطرح، وكما تقدّم فحديث جبريل حديثٌ ضعيفٌ، وأما بخصوص ما عرّض به الرصافي من اختلاف بين حديث :" تنام عيني ولا ينام قلبي"، وحديث نومه ﷺ عن صلاة الصبح، فقد جمعَ أهل العلم بينها في أن عدم نوم القلب متعلق بما يُحس به ﷺ من الحدث والألم، ولا تعني أنه يُدرك كل شيء يقع حوله مما تدركه العين من دخول الوقت ونحوه[1]، فضلاً عن أن هذا الحديث لا صلة له بوصف نزول الوحي على النبي ﷺ، وما هو إلا خصيصة من خصائص النبي ﷺ. وأما حديث :" شيبتني هود وأخواتها...". فهو حديث معلول -كما تقدّم-، وعلى فرض ثبوته فمعناه:" (شيبتني هود) أي سورة هود (وأخواتها) أي وما أشبهها مما فيه من أهوال القيامة وشدائدها وأحوال الأنبياء وما جرى لهم (قبل المشيب)؛ لأن الفزع يورث الشيب". قاله المناوي في فيض القدير[2].

وأما استدلاله بحديث يعلى بن أمية فهذا الاستدلال من الغرابة بمكان، حيث ذكر الرصافي تحليلاً وكأنه أحد المختصين علمياً بدراسة وظائف المخ والأعصاب! والواقع يُفيد أنه حتى المختصين يُدركون الحاجة إلى العمق والدقة في دراسات التشخيص وعدم المجازفة في إصدار النتائج والأحكام[3].

(1) انظر: "شرح النووي على مسلم" 190/11 .

(2) "فيض القدير"، للمناوي 222/4.

(3) انظر: الرابط التالي في موقع (مايو كلينك) :
https://www.mayoclinic.org/ar/diseases-conditions/epilepsy/symptoms-causes/syc-20350093

=

يقول الرصافي:" ونُورد لك هنا صورة من صور الوحي يتضح لك بها جليا أن حدوث هذه الحالة عند الوحي إنما هو مسبب عن تفكيره في الأمر المراد نزول الوحي به عن تأثير تفكيره في أعصابه...". ثم ذكر حديث يعلى بن أمية، وهذا كلام لا يحمل قيمة علمية؛ لأنه مبني على تخرصات بعيدة عن المنهج العلمي القائم على الدليل والمقارنة، ولو سلمنا للرصافي بهذا التحليل فالسؤال : ما الذي دعا النبي ﷺ إلى عمق التفكير والتأزم لرجلٍ سأل عن وضع الطيب للمحرم؟! وقد سُئل ﷺ قبلها وبعدها مسائل أعظم أثراً وخطراً، ولم يكن منه ﷺ ما كان في حديث يعلى[1].

ثم ألم ينظر الرصافي إلى الوضوح والبيان من النبي ﷺ وشفاء السائل بالجواب بعد نزول الوحي؟! وسيأتي تفصيل هذا في المطلب الخامس: في أن آثار الوحي علم وبيان وآثار الصرع ذهول ونسيان، ولكن صدق الله ﷻ :﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ **[القصص:50]**.

المطلب الثاني: الشدة الظاهرة على النبي ﷺ سببها ثقل الوحي:

لقد ضلّ الرصافي سواء السبيل، وقال إفكاً وزوراً وبهتاناً مبيناً، ومن أهم أسباب الخطل عنده عدم إدراك القواعد المنهجية في فهم السنة النبوية، والتي منها فهم السنة في ضوء القرآن، وفهمها وفق السياق، وفهمه وفق قواعد اللغة، وغير ذلك من القواعد المرعية عند أئمة الحديث.

الزيارة بتاريخ : 1442/4/1هـ

(1) كما في حديث أبي هريرة في السؤال عن الساعة ، أخرجه البخاري 59. وكما في حديث أنس بن مالك في رجل من أهل البادية سأل النبي ﷺ أخرجه مسلم 12، وغيرها كثير .

إن مخالفة الرصافي صريحة لمبادئ البحث العلمي المنصف التي تضبط صحة النتائج العلمية، وكان في وسعه أن يكون باحثاً منصفاً متتبعاً للحقيقة ودلائلها لو أراد، فالطريق واضح والأصول بينة ومعنى هذه الأحاديث لا لبس فيها لمن طلب الحق، فهي تُظهر الحال الخاصة بالنبي ﷺ حال نزول الوحي ، وفيها وصف الشدة التي كان تظهر على النبي ﷺ، وكان للرصافي أن يطرح أسئلة علمية عن دلالة هذه الأحاديث: ما طبيعة هذه الشدة، ما سببها، ما موقف الصحابة منها ؟ فهذه أسئلة تُبيّن أمر الوحي وتُظهر صورته.

لقد كشفت الأحاديث الصحيحة أن ما كان يقع على النبي ﷺ من الشدة إنما كان سببها ثقل الوحي الذي كان يَتنزل على النبي ﷺ، وقد وصفه الله ﷻ بذلك وصفاً صريحاً، فقال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ **[المزَّمل:5]**، فالثقل محسوس للنبي ﷺ بما كان يقع عليه من الشدة، قال الطبري:" وقال آخرون: بل عنى بذلك أن القول عينه ثقيلٌ محملُهُ... وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله وصفه بأنه قولٌ ثقيلٌ، فهو كما وصفه به ثقيلٌ محمله، ثقيلٌ العمل بحدوده وفرائضه"[1].

وقال الخطابي :"والمعنى أن الوحي كان إذا ورد عليه تصعَّده، له مشقةٌ ويَغشاه كربٌ؛ وذلك لثقل ما يُلقى عليه من القول، وشدة ما يأخذ به نفسه من جمعه في قلبه وحسن وعيه وحفظه، فيعتريه لذلك حالٌ كحال المحموم، وهو معنى ما جاء في رواية أخرى أنه كان يأخذه عند الوحي الرُّحَضاء أي البُهْر والعَرق[2]، ولذلك كان يَتفصّد جَبينه، أي يسيل عرقاً كما يفصد العرق فسيل منه الدم...

(1) "تفسير الطبري" 23/ 681-682.

(2) ورد في حديث عائشة في حادثة الإفك المخرج في صحيح البخاري 2661، ومسلم2770.

وجملة الأمر فيما كان يناله من الكرب عند نزول الوحي هي شدة الامتحان له ليبلو صبره ويحسن تأديبه، فيرتاض لاحتمال ما كلفه من أعباء النبوة، وحسن الاضطلاع للنهوض به إن شاء الله..." [1].

وقال النووي:" سبب الشدة هيبة الملك وما جاء به وثقل الوحي، قال الله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ **[المزَّمل:5]** ، والمعالجة المحاولة للشيء والمشقة في تحصيله، قوله: (فكان ذلك يُعْرَفُ مِنْهُ) يعني يعرفه من رآه لما يظهر على وجهه وبدنه من أثره كما قالت عائشة رضي الله عنها :(ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا)..." [2].

وله عليه الصلاة والسلام بذلك الأجر العظيم، قال ابن حجر:" وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات "[3].

وهذه الشدة بدأت بالنبي صلى الله عليه وسلم من أول الأمر، وهو حدثٌ جديدٌ لم يَعهده من قبل كما لم يَعهده غيره منه، فالملك الذي لقي النبي ﷺ في غار حراء قد غطَّه أي حبس النفس، قال ابن حجر :"كأنه أراد ضمَّني وعَصرني، والغَطُّ: حبس النفس، ومنه غطّه في الماء، أو أراد غمّني ومنه الخنق"[4].

---

(1) إعلام الحديث، للخطابي 121/1-122، وانظر: "سبل الهدى والرشاد"، للصالحي 259/2.

(2) "شرح النووي على مسلم" 4/ 166 .وانظر: "إكمال المعلم بفوائد مسلم"، 2/ 360.

(3) "فتح الباري"، لابن حجر 20/1 .

(4) المصدر المتقدّم 24/1.

قال النووي :"قال العلماء: والحكمة في الغَطِّ شغله من الالتفات والمبالغة في أمره بإحضار قلبه لما يقوله له، وكرره ثلاثاً مبالغة في التنبيه" [1].

وفي حديث بدء الوحي[2]، قال النبي صلى الله عليه وسلم :"حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ"، وأدركه لذلك الخوف الشديد ، قالت عائشة :"فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** يَرْجُفُ فُؤَادُهُ"، والرجف الخفق والاضطراب الشديد [3]، قال ابن حجر:" قوله (لقد خشيت على نفسي) دل هذا مع قوله (يرجف فؤاده) على انفعال حصل له من مجيء الملك[4]...". ثم ذكر ابن حجر اثني عشر قولا في المراد بالخشية المذكورة، ثم ذكر أن أولى هذه الأقوال بالصواب وأسلمها من الارتياب هذه الأقوال : القول بأن المراد الموت من شدة الرعب، والقول بأن المراد المرض، والقول بأن المراد دوام المرض [5].

وطلبه صلى الله عليه وسلم التزمل وتكراره لذلك دليلٌ على هذا، قال ابن الملقن :" "زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي" هكذا هو في الروايات بالتكرار، والتزمل: الاشتمال والتلفف، ومثله التدثر، ويقال لكل ما يلقى عَلَى الثوب الذي يلي الجسد: دثار...وقال ذَلِكَ صلى الله عليه وسلم؛ لشدة ما لحقه من هول الأمر، وشدة الضغط، ولولا ما جبل عليه صلى الله عليه وسلم من الشجاعة والقوى ما استطاع عَلَى تلقي ذَلِكَ؛ لأن الأمر جليل"[6].

(1) "شرح النووي على مسلم" 199/1.
(2) حديث عائشة المخرج في صحيح البخاري 3، ومسلم 160.
(3) "المحكم"، لابن سيده 7/ 274 .
(4) "فتح الباري"، لابن حجر 24/1.
(5) المصدر المتقدّم. وانظر: "إكمال المعلم" 485/1 .
(6) "التوضيح لشرح الجامع الصحيح" 2/ 267.

المطلب الثالث : ظهور أمر شدة الوحي على النبي ﷺ لمن حوله .

إن الله أعطى الناس الإدراك والتمييز بين الأحوال، ومكّنهم من وسائل الفحص وكشف الزيف، ودعاهم إلى العقل والتفكر والتدبر، وقد كانوا يرون النبي ﷺ في سائر أحواله، إلا أن الرصافي يأبى إلا أن يُمعن في الضلال والجهل فيتهم الفئام من الناس من العقلاء والأدباء ودهاة العرب وأذكياء العالم بعدم إدراك حال النبي ﷺ الحقيقية، يقول ذلك الرصافي وكأنه لم يعلم بأن هؤلاء هم الذين جابهوه في مبدأ دعوته وردوها بكل ما أوتوا، ولكن لم يستطيعوا إلا الإذعان للحق والانصياع له، وعلموا أنه رسول الله حقاً مؤيداً بدلائل النبوة من مثل حاله ﷺ عند نزول الوحي ، لكن الأمر يحتاج إلى الإنصاف واستخدام العقل، قال الله ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾ **[الأعراف:184]**، قال الطبري:" أو لم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أن رسولَنا الذي أرسلناه إليهم، لا جنَّة به ولا خَبَل، وأن الذي دعاهم إليه هو [الرأي] الصحيح، والدين القويم، والحق المبين؟"(1).

لقد أدرك الصحابة الشدة التي كانت تقع على النبي ﷺ ، وما كانوا يخلطونها بحال شخص آخر، في حديث عائشة قولها رضي الله عنها :" فَوَاللهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَضْحَكُ"(2).

وهذا المعنى الصحيح لقولهم :" فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ"، لا المعنى الذي افتراه الرصافي، وفي قولها هذا دليل على أن نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم

(1) " جامع البيان"، للطبري 289/13 .

(2) أخرجه البخاري 2661، ومسلم2770.

بهذه الصورة عادة كان يعرفها من حوله، يلتزمون خلالها الصمت حتى يُسرّى عنه، والحديث يدل أيضاً على الشدة التي كانت تقع عليه صلى الله عليه وسلم [1].

بل إن عائشة كانت تستحضر حالات النبي ﷺ وتقيسها بالمشهور من أمره، وفي حديثها عن خديجة رضي الله عنها[2]، وما أوردتْهُ من مقالة موردَ التنقيص، تغير وجه النبيﷺ ، وشبهت عائشة رضي الله عنها هذا التغير بما كان تراه منه صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحي من تغير اللون ونحوه.

وفي حديث أبي سعيد [3] جاء في وصف النبي ﷺ حال نزول الوحي على المنبر، وهو يعظ صحابته الجالسين حوله، حيث اعترض سائلٌ النبي ﷺ بالسؤال، فنزل الوحي على النبي ﷺ، وقد عرف الصحابة ذلك، قال أبو سعيد :" فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ"، قال ابن حجر :" وكأنهم فهموا ذلك بالقرينة من الكيفية التي جرت عادته بها عندما يوحى إليه"[4]، وسكوته ﷺ انتظاراً للوحي[5].

فالأمر كان استثنائياً خاصاً بالنبي ﷺ، ولذا ما كانوا يقولون فيما تقدّم من الأحاديث: "فأخذه ما كان يأخذ بعض الناس حال الصرع"، بل إننا لا نجد لفظة واحدة وصفوا ما كان يقع من النبي ﷺ بالصرع، وهم القوم الذين يعرفون الصرع ومظاهره وأعراضه، وكانوا ينقلون حالات الصرع إلى النبي ﷺ فيدعوا لها

(1) انظر: "فتح الباري"، لابن حجر 682/8 .

(2) أخرجه أحمد25810 بإسنادٍ صحيحٍ. وللاستزادة في تخريجه ، انظر: الحديث السابع في بحث "الأحاديث الواردة في وصف النبي صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحي جمعاً ودراسة".

(3) أخرجه البخاري1465، ومسلم 1052.

(4) "فتح الباري"، لابن حجر 246/11.

(5) المصدر المتقدّم.

بالشفاء كما وقع مع الجارية السوداء، في الصحيحين[1] عن عَطَاء بْن أَبِي رَبَاحٍ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا، وفي صحيح مسلم [2] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ ضِمَادًا، قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ» قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَعَلَى قَوْمِكَ»، قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي، قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً، فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً، فَقَالَ: رُدُّوهَا، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ.

(1) البخاري 5652 ، ومسلم 6663 .

(2) مسلم 868 .

إن هذه الأحاديث التي جاءت في وصف النبي ﷺ ليس فيها شيء من الأوصاف المعروفة من التشنجات وغيرها عند المصروعين، والصحابة والناس جميعاً ليسوا غُفْلاً لا يعرفون الأمراض وما يصيب الناس من الصرع ونحوه . كلا! ليسوا كذلك ! بل كانوا يُدركون أحوال الأمراض وما يصيب الناس وأوصافها، وكانوا يتعاملون مع المصروعين بما يُناسب من حاجتهم ومساعدتهم في هذا البلاء[1].

أما الصحابة بين يدي النبي ﷺ حال الوحي فهم في حضرة مهيبة، ومحل وقار، فيه من الجلال والبهاء ما يرون شواهده حاضرة، يتمنى بعضهم رؤيتهم فيها كما حصل ليعلى بن أمية، وتتحقق هذه الأمنية له ويرى شيئاً من دلائل نبوته ﷺ، جاء في رواية عطاء عند مسلم :" كَانَ عُمَرُ يَسْتُرُهُ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، يُظِلُّهُ، فَقُلْتُ لِعُمَرَ رضي الله عنه: إِنِّي أُحِبُّ، إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، أَنْ أُدْخِلَ رَأْسِي مَعَهُ فِي الثَّوْبِ، فَلَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، خَمَّرَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالثَّوْبِ"[2].

قال النووي:" وأما إدخال يعلى رأسه ورؤيته النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الحال وإذن عمر له في ذلك فكله محمول على أنهم علموا من النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يكره الاطلاع عليه في ذلك الوقت وتلك الحال لأن فيه تقوية الإيمان بمشاهدة حالة الوحي الكريم والله أعلم"[3].

(1) انظر:"عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، لأبي العباس ابن أبي أصيبعة،"الْبَاب السَّابِع طَبَقَات الْأَطِبَّاء الَّذين كَانُوا فِي أول ظُهُور الْإِسْلَام من أطباء الْعَرَب وَغَيرهم" 161.

(2) أخرجها مسلم 1180.

(3) "شرح النووي على صحيح مسلم" 80/8.

إن الأمر كان ظاهراً عند الصحابة سيما الملازمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذين عَرفوا بالاستقراء ما كان يأتيه صلى الله عليه وسلم من الشدة والرحضاء ، وغير ذلك، كما أنهم عرفوا أنها حالٌ خاصة به ﷺ ليست لأحدٍ من بني البشر، وهذا معنى مهم ، يقول أبو هريرة رضي الله عنه:" وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا، فَإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ "[1]، وهذا يدل على أن الصحابة بعقولهم ومعرفتهم لأحوال الناس يدركون المتماثلات بين بني البشر، كما يدركون الأحوال الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، والأمر ليس شيئاً عابراً لا يسترعي انتباه أحد، كلا! لم يكن الأمر كذلك، وسياق حديث أبي هريرة يدل على أن مدة نزول الوحي كانت تحتاج إلى الانتظار بعض الوقت، وأما قوله :" فَإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺحَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ..." فهذا أدب من آداب الصحابة تأدّبوه مع الوحي ومع النبي ﷺ ، حيث ما كان أحدٌ يرفع بصره إلى رسول ﷺ حتى ينقضي الوحي.

المطلب الرابع : الثقل الحسي وتعديه إلى الغير :

أشار الرصافي إلى ثقل الوحي وتعديه إلى غير النبي ﷺ ولكن لم يستفد منه، حيث جاء في حديث زيد النص على وقوع الثقل الحسي للوحي على النبي صلى الله عليه وسلم [2]، وقد تعدّى هذا الثقل إلى غيره، إلى من هو بجواره، وهو راوي الحديث زيد بن ثابت الذي عبّر عن ذلك بقوله: " وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنَّ تَرُضَّ فَخِذِي ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ"[3]، قال العيني :"بضم التاء المثناة

(1) أخرجه مسلم1780.

(2) "إرشاد الساري"، للقسطلاني 91/7 .

(3) تقدّم تخريجه.

من فوق وفتح الراء: على صيغة المجهول، ويجوز أن يكون على صيغة المعلوم أيضاً من الرض، وهو: الدق. وكل شيء كسرته فقد رضضته"[1].

وهذا معنى مهم؛ فيه من دلائل نبوته ﷺ[2]؛ فالثقل حسي وقد تعدى إلى من هو بجوار النبي ﷺ، حتى كادت أن تَندق وتَنكسر فخذ من كان ملاصقاً للنبي ﷺ وهو راوي الحديث زيد بن ثابت، وكان للرصافي أن يُعمل عقله قليلاً، ويتمعن في هذه النصوص التي ينقلها، فالثقل قد تعدّى إلى من هو بجواره، فهل هذا وصف من أوصاف الصرع، وهل الصرع ينتقل بالملاصقة؟!

المطلب الخامس : آثار الوحي علم وبيان وآثار الصرع ذهول ونسيان :

إذا قلنا بأن الشدة كانت تقع على النبي ﷺ حال نزول الوحي فليس معنى هذا أنه ﷺ كان يفقد وعيه ولا يدري بمن حوله؛ بل كان الوحي يأتيه ﷺ ثم يفصم عنه وقد وعى ما يقول كما هو نص الحديث، قال الخطابي :" (يَفصم عني) معناه: يُقلع عني ويَنجلي ما يتغشّاني منه، وأصله من الفَصْم وهو القطع، ومنه قول الله تعالى: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ **[البقرة:265]** أي لا انقطاع لها. ويقال: إن أصل الفَصم الصَّدع والشَّق من غير إبانة "[3] .

لقد أظهرت أحاديث وصف النبي ﷺ حال نزول الوحي مقامات النبوة العظيمة الكاشفة عن الكمال البشري المبينة عن اصطفاء الله لنبيه ﷺ ، فبينما نبيه ﷺ بين أصحابه إذ تَنزّل عليه الوحي، في مجلس مليء الوقار والسكينة والخضوع لرب العالمين، ثم يفصم عنه ﷺ فيتحدث بكلام مبين فيه البيان

(1) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (4/ 83).
(2) انظر: "دلائل النبوة"، للبيهقي 52/7 .
(3)"إعلام الحديث"، للخطابي 120/1-121 .

والشفاء والجواب للحاضرين والسائلين، فيه صلاح أمر الدين والدنيا، فيه القصص والعبر.

فهو ﷺ في كامل وعيه ويُخبر بما جاء عن ربه بلسان عربي مبين، ولا يجري له–حاشاه ﷺ – ما يجري للمصروعين من غياب الوعي والفزع والحركات اللاإرادية.

ورد في موقع منظمة الصحة العالمية الأعراض التالية للصرع:" الأعراض المؤقتة، مثل فقدان الإدراك أو الوعي، واضطرابات الحركة والإحساس (بما في ذلك الرؤية والسمع والتذوق)، والحالة المزاجية، وغيرها من الوظائف الإدراكية، وينزع الأشخاص المصابون بالنوبات إلى المعاناة من المشكلات البدنية الأخرى (مثل الكسور والكدمات الناجمة عن الإصابات المتعلقة بالنوبات)، وزيادة معدلات الاعتلالات النفسية بما في ذلك القلق والاكتئاب. وبالمثل فإن مخاطر الوفاة المبكرة بين الأشخاص المصابين بالصرع تبلغ 3 أضعاف المعدل الخاص بعامة السكان... وهناك نسبة كبيرة من أسباب الوفيات المتعلقة بالصرع في البلدان المنخفضة والمتوسطة الدخل يمكن تجنبها، مثل السقوط والغرق والحروق والنوبات الممتدة"[1].

إن الشخص المصاب بمثل هذه الأمراض لا بد أن يكون مشغولاً في نفسه ظاهراً عجزه لمن حوله، وليس ناطقاً بالعلم والبيان وعمارة الأرض وبناء الإنسان، مقيماً لدعوة عظيمة فيها كل ما يصلح أحوال الناس في العاجل والآجل، فيها الجواب والشفاء لكل ما يُشكل على بني البشر، ترك أصحابه على البيضاء ليلها

(1) انظر: موقع الصحة العالمية :
https://www.who.int/ar/news-room/fact-sheets/detail/epilepsy
تاريخ زيارة الموقع : 1442/4/1هـ.

كنهارها، لا لبس فيها ولا غموض، وهذه الأمور من الواضحات الجليات، ولكن إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

المطلب السادس :بطلان بعض الأوصاف ؛ لورودها في أحاديث باطلة :

من مزايا البحث العلمي الجاد: سعة المصادر ودقتها وعدم الارتهان إلى مصادر محدودة قد تحجب الحقيقة، وهذا ما أخل به الرصافي إخلالاً مبيناً، فهو يدور مع مصادر محدودة لا تتجاوز عدد اليد، وقد صرّح بذلك، حيث يقول :"وأنا إذ كان عملي ناقصاً فسببه قلة المصادر التي لدي فأنا ألفت هذا الكتا، وليس لدي من أمهات المصادر سوى أربعة، وهي : السيرة النبوية للحلبي، وسيرة ابن هشام، والتفسير للزمخشري، ومعجم البلدان، وهذه الكتب الأربعة هي أيضاً ليست ملكي، وإنما استعرتها من السيد مصطفى علي"[(1)].

لقد ابتعد الرصافي عن المصادر الأصيلة والأصول الصحيحة، مثل الصحيحين ونحوهما، كما أنه فرّط في الرجوع إلى كتب الشروح التي تميزت ببيان المشكل وفهم الروايات وتوجيهها، ونتيجة لهذا فقد ذكر الرصافي أحاديث باطلة واحتكم إليها، وهي أحاديث لا يصح أن تُنسب إلى النبي ﷺ ومخالفة للأحاديث الصحيحة أو تحمل معانٍ باطلة ، وهي كالتالي :

- حديث أسماء بنت عميس رضي الله عنها، والذي جاء فيه أن النبي ﷺ يكاد أن يُغشى عليه عند الوحي، وهذا الحديث موضوع—كما تقدّم–، وتردُّه الأحاديث الصحيحة التي ذكرت أوصافه الواضحة ﷺ حال نزول

(1) " الرصافي يروي سيرة حياته"، د. يوسف عز الدين 110.

الوحي من الكرب والشدة ونحوها، وليس فيها شيء مما يتعلق بغياب الوعي وانعدام الحس.

- حديث :" كان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة". وهذا حديث منكر –كما تقدّم–.
- حديث :"وإن جبريل كان يأتيني فيكلمني وكنت أراه أحياناً كما يرى الرجل صاحبه من وراء غربال". وهو حديث ضعيف –كما تقدّم–.
- حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأنه كان يسمع عند وجهه كدوي النحل، وهذا الحديث متعلق بوصف حال النبي صلى الله عليه وسلم من قبل الحاضرين، وهو جانب مهم، وقد تقدّم أن الحديث لا يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكره الحافظ ابن حجر ولم يتكلم عليه بشيء، وجمع بينه وبين ما تقدّم من حديث الصلصلة، فقال:" فدوي النحل لا يعارض صلصلة الجرس لأن سماع الدوي بالنسبة إلى الحاضرين كما في حديث عمر يسمع عنده كدوي النحل والصلصلة بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشبهه عمر بدوي النحل بالنسبة إلى السامعين وشبهه هو صلى الله عليه وسلم بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه"[1].

وقال المناوي :" أي سمع من جانب وجهه وجهته صوت خفي كدوي النحل كأن الوحي يؤثر فيهم وينكشف لهم انكشافا غير تام فصاروا كمن يسمع دوي صوت ولا يفهمه أو سمعوه من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من غطيطه وشدة تنفسه عند نزوله ذكره القاضي"[2]. ولكن الأقرب أنه حديث ضعيف– كما تقدّم–.

(1) " فتح الباري" ، 19/1 .

(2) "فيض القدير" 140/5 .

- حديث عكرمة رضي الله عنه، والذي جاء فيه وصف النبي ﷺ بأنه كهيئة السكران حال نزول الوحي.

وقد وجّهه بعض أهل العلم، قال ابن عقيل:" إنما نسبوا رسول الله ﷺ إلى الجنون لما كان يَعتاده عند نزول الملك من الإغماء والشدة، ثم أغفلوا ما وراء الصورة من المعنى بترك الفرق بين ذلك بين إغماء الجنون، فإن أثر ما كان يجري له بيان الصواب والحق، بخلاف إغماء الجنون، وهذا الذي تلمَّحته خديجة فقالت: والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتَصْدُق الحديث وتعين على نوائب الحق. قال ابن عقيل: فإن قال قائل: ما كان يجري عليه من البرحاء حين نزول الوحي هل ينقض وضوءه؟ فالجواب: لا، لأنه كان محفوظاً في منامه، تنام عيناه ولا ينام قلبه، فإذا كان النوم الذي يستطلق فيه الوكاء، لا ينقض وضوءه، فالحالة التي أكرم فيها بالمسارّة والإلقاء إلى قلبه الهُدى أولى أن تكون طباعه فيها معصومة من الأذى"[1].

وقال المناوي:" (لذَلِك سَاعَة كَهَيئَةِ السَّكْرَان) وَهُوَ الْمعبر عَنهُ بِالْحَال فَإِن الطَّبْع لَا يُنَاسِبه فَلذَلِك يشْتَد عَلَيْهِ وينحرف له مزاج الشخص ثم يسرى عنه فيخبر عنه بما قيل له "[2].

وقال علي الحلبي :" أي يقرب من حال المغشي عليه لتغيره عن حالته المعهودة تغيرا شديدا حتى تصير صورته صورة السكران: أي مع بقاء عقله وتمييزه"[3] .

(1) "الوفا"، لابن الجوزي 117 .
(2) "فيض القدير" 111/5 .
(3) "السيرة الحلبية" ، 367/1 .

والصحيح أن هذا الحديث باطل لا يصح سنداً ولا متناً ، أما السند فقد تقدّم الحكم عليه، وأما المتن فإنه معارض للأحاديث الثابتة التي جاءت بوصف النبي ﷺ بحال خاصة به، لا ينبغي أن تكون لأحدٍ من العالمين ، ولا يجوز أن يُوصف هذا بأحوال السكارى الذي هم في حالٍ يُرثى لها من انعدام العقل وفلتان اللسان وضياع الأخلاق، حاشاه ﷺ.

الخاتمة

الحمد لله حق حمده، والشكر له على توفيقه وفضله، وصلاةً وسلاماً دائمين على خير خلقه محمدٍ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، وبعد:

ففي ختام هذا البحث ظهر لي عددٌ من النتائج ، يمكن تلخيصها فيما يلي :

1. ضلَّ سعي الرصافي وخابَ عمله بما قدّم في هذا الكتاب، حيث حشده بالكثير من الشبهات التي لا تُؤثر إلا على الذين في قلوبهم زيغ، أما أهل الإيمان فلديهم أصول العلم ومنهج اليقين، بها يعرفون معنى النصوص وخصوصية المقام.
2. لم يُقم الرصافي الأصول العلمية في تحليل الأحاديث وفهمها؛ و ذلك لأنه عطّل عقله وأعمى بصره، ودخل في الأحاديث بفكرة ملوثة مستقرة في نفسه، فانعدم حياده وعسر النصوص في ليّها إلى هواه ، واستدل بالمنكرات منها.
3. يدّعي كثير من الكُتّاب الموضوعية والحماس لمنهج البحث العلمي ولكن سرعان ما يذوب هذا الكلام ، ويكون الفشل منهم عند الاختبارات الأولى التي تطلب الدليل وتسعى إلى التحرير، فكلامهم مجرد انطباعات لا تتفق أبداً مع المناهج العلمية.

4. على الباحث عن الحق أن يكون موضوعياً، وأن لا يسمح للانطباعات الذاتية والمتأثرة بقراءات شاذة باتخاذ القرارات دونه أو الصدور عن آراء لا تثبت في ميزان العلم والعقل، وهذه أساسات الشطط عند الرصافي الذي تقحم هذا الموضوع وولجه من غير علم ولا حصافة.

5. ما أثارَهُ الرصافي من الشبهات حول هذا الموضوع ليس بالغريب على أصحاب الهوى، وما هو إلا امتدادٌ لسلسلةٍ باغيةٍ خاطئةٍ بدأت منذ عهد النبي ﷺ؛ هدفها تشويه دعوة الإسلام والصد عن الحق، فكفار قريش كانت بدايتهم في اتهام النبي ﷺ في عقله، وقد كرروها كثيراً ، وما كان لهم من حجة إلا أن يقولوا: شاعرٌ أو مجنون، وكانوا يُحذرون الناس من النبي ﷺ بهذه الدعوى.

6. لقد ضلّ الرصافي سواء السبيل، وقال إفكاً وزوراً وبهتاناً مبيناً، ومن أهم أسباب الخطل عنده عدم إدراك القواعد المنهجية في فهم السنة النبوية، والتي منها فهم السنة في ضوء القرآن، وفهمها وفق السياق، وفهمه وفق قواعد اللغة، وغير ذلك من القواعد المرعية عند أئمة الحديث.

7. من مزايا البحث العلمي الجاد: سعة المصادر ودقتها وعدم الارتهان إلى مصادر محدودة قد تحجب الحقيقة، وهذا ما أخل به الرصافي إخلالاً مبيناً، فهو يدور مع مصادر محدودة لا تتجاوز عدد اليد مبتعداً عن المصادر الأصيلة والأصول الصحيحة.

8. من أسباب وقوع الرصافي في الأخطاء العلمية والمنهجية استدلاله بأحاديث باطلة لا يصح نسبتها إلى النبي ﷺ، وهي مخالفة للأحاديث الصحيحة أو تحمل معانٍ باطلة.

9. يحتاج من يكتب في باب الوحي إلى مراجعة الكتب الخاصة بالنبوات، والتي تَعتبر النبوة أصلاً من الأصول وشرفاً اختص الله به من شاء من عباده، كما أن هذه الكتب تتطرق إلى قضايا أساسية في النبوة، من مثل الحديث عن حقيقة النبوة، والحكمة من بعث الرسل، ووظائف المرسلين وما أيّدهم الله ﷻ به من البراهين ونحو ذلك.
10. لا يزال أهل الزيغ والضلال يُثيرون الشبهات حول النصوص الشرعية، ويجعلونها منطلقاً لأغراضهم الساقطة؛ ولذا أوصي المختصين بمتابعة الجهود في كشف هذه الشبهات والرد على المفترين.
11. كتاب "الشخصية المحمدية" فيه الكثير من الشبهات التي تحتاج إلى دراسة نقدية تُفندها وتُظهر عوارها وتدحضها بالحجة والبرهان.

والله أعلم، وصلى الله وسلّم على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.